مجلة علمية دولية محكّمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.

المجلد:06./ العـدد: 01 جوان (2022)، ص71-79

البلاغة عند الجاحظ بين حمادي صمود وعبد السلام المسدي، قراءة في المنهج والإجراء

The Rhetoric of Al-Jahiz between HammadiSamoud and Abd al-Salam al-Masadi, a study in method and procedure

كحلي رابح
kahli.rabah@cuniv-tissemsilt.dz
جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت
(الجزائر)

تاريخ الاستلام:2022/01/06 تاريخ القبول: 2022/04/12 تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص:
تعتبر البلاغة العربية من أرقى البلاغات التي اهتم بها الدارسون على مر الأزمان، فقد كان كتاب البيان والتبيين للجاحظ مادة دسمة للباحثين كلٌ يبحث فيه عن ضالته، ومن الذين انبروا لهذه البلاغة من المعاصرين نجد مُحَمَّد العمري وحمادي صمود ومُحَمَّد مشبال وسعد بلمليح، وعبد السلام المسدي، وقد كان اختيارنا لحمادي صمود وعبد السلام المسدي أنموذجاً لهذه الدراسة لاعتبارات كثيرة منها تقارب مشروع الرجلين، حيث نحاول المقارنة بين دراسة عبد السلام المسدي وبين دراسة مُحَمَّد العمري، حيث اعتنى الأول بدراسة البلاغة العربية وفق المنهج الأسلوبي، والثاني استثمر في هذه المناهج لكشف الجذور والامتدادات، والسؤال المطروح هل نجحا في كشف بلاغة الجاحظ وفق رؤية المناهج الغربية ؟

كما أننا نهدف في هذا البحث إلى كشف دراسة الرجلين، وكيفية تعاملها مع التراث البلاغي خاصة المتعلق بالجاحظ، ومن أبرز النتائج التي توصلنا إليها هي أهمية دراسة التراث البلاغي بآليات المناهج الغربية، وأهمية المنهج الأسلوبي في كشف بلاغة أبي عثمان، وإعادة النظر في مرتكزات الدراسات السابقة للبلاغة العربية القديمة.

كلمات مفتاحية: الجاحظ، عبد السلام المسدي، حمادي صمود، المنهج، الأسلوبية، البلاغة.

Abstract:

The Arabic rhetoric is considered as one of the finest rhetoric that scholars have been interested in throughout the ages, Al-Jahiz's book Al-Bayan wa Al-Tabeen was a rich material for researchers, each searching for what he wanted, Among the contemporaries who excelled in this rhetoric are Muhammad al-Omari, Hammadi Samoud, Muhammad Michbaland Saad Belmaleh. And so many others, Our choice of Hammadi Samoudand Abdul Salam Al-Masadi was a model for this study for many considerations Including the rapprochement of the two men's project, where wetry to compare the study of Abd al-Salam al-Masdi with the study of Muhammad al-Omari. Where the first took care of the study of Arabic rhetoric according to the stylistic approach, and the second invested in these methods to discover the root sand extensions, the questionis did they succeed in revealing the eloquence of Al-Jahiz by applying according to the vision of Western curricula?

We also aim in this research to reveal the study of the two men, And how they deal witht her retorical heritage, especially those related to Al-Jahiz, And One of the most prominent results we have reached is the importance of studying the rhetorical heritage using the mechanisms of Western curricula, and the importance of the stylistic approach in revealing the rhetoric of Abi Othman, and reconsidering the foundations of previous studies of the ancient Arabic.

Keywords*rhetoric; Al-Jahiz's; Abdul Salam Al-Masadi; ancient. Hammadi Samoud.*

1. **تمهيد:**

تنوعت القراءات بين (نسقيّة وسياقية) للمدوّنة الجاحظية عموماً، حيث جاءت القراءات النسقية في مشروع مُحَمَّد العمري ضمنكتابهالموسوم بـ: **(البلاغة العربية أصولها وامتداداتها)**، وكذلك في مشروع حمادي صمود في مؤلفه المعنون بـ: (**التفكير البلاغي عند العرب**) ومُحَمَّد مشبال في كتابه: (**بلاغة النادرة**)، وإدريس بلمليح في مؤلفه: **(الرؤية البيانية)**، أما القراءات السياقية التي اعتنت بالتأريخ التحقيبي للبلاغة العربية، من أبرزها قراءة شوقي ضيف في كتابه الموسوم بـ: (**البلاغة تطور وتاريخ**)، وشارل بلاّ في كتابه: (**الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء**)، وكذلك (**الوسط البصري ودوره في تكوين الجاحظ**)، هذه المؤلفات اهتمت بتدوين البيئات المتصلة بالجاحظ وبكتاباته، وهناك قراءات اتخذت المنهج الغربي سبيلا لذلك، فنجد مقاربة عبد العزيز حمودة في: **(المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية)**، وحمادي صمود في: (**التفكير البلاغي عند العرب**) الذي دخل معترك التراث الجاحظي بمنظور حداثي لساني، وكذلك مقاربات أخرىغلب عليها طابع الاستدراج وتوظيف لمقولات الجاحظ، مثل قراءة مُحَمَّد كرد علي المسماةبـ: **(أمراء البيان)**.

يعتبر حمادي صمود وعبد السلام المسدي من الذين كانت لهم اسهامات جليلة في إحياء البلاغة العربية القديمة، بحيث نجد كلٌ منهما له رصيد علمي كبير ومؤلفات ليست باليسيرة، تعتبر أطروحته**التفكير البلاغي عند العرب**، التي صدرت بداية الثمانينات، عن الجامعة التونسية، والتي لاقت اهتمام الدارسين كثيرا، وهذا الكتاب والمشروع القرائي شكّل قفزة نوعية في إعادة قراءة البلاغة العربية القديمة بآليات جديدة، ومن أبرز ما جاء في مشروعه القرائي هذا، هو إعادة النظر في مرتكزات الدراسات السابقة للبلاغة العربية القديمة، وهنا نبدأ بحمادي صمود ثم نعرّج على مقاربة عبد السلام المسدي.

كما يعتبر من الباحثين التونسيين المعاصرين الذين تبنوا البلاغة الغربية والعربية، المعاصرةوالقديمة،وتعد أطروحته - هذه- قراءة في المدوّنة البلاغية العربية حتى القرن السادس الهجري من أفضل المؤلفات في هذا العقد في التأريخ لنشأة البلاغة العربية، وقد قسمها إلى ثلاث روافد كبرى هي: البلاغة قبل الجاحظ، والحدث الجاحظي، وبعد الجاحظ.

لقد رام حمادى صمود مباشرة التفكير البلاغى العربى من منطلق التفاعل بين التراث والحداثة، وفى هذا التوجه استعان المؤلف بالمفاهيم اللسانية والنقدية الحديثة، وبفعل المزاوجة الذكية بين النظريتين التاريخية التطورية والآنية التأليفية، ربط المناقشات الخارجية بالقضايا الداخلية بتصور الجاحظ العام، وهو عمل خالف فيه صاحبه نمط الدراسات القائمة على السرد التاريخى، وتلخيص مضامين الكتب، وهنا نستطيع القول أن قراءة صمود تعتبر فتحاً جديداً في التعامل البنيوى اللسانى مع التراث.

نحس مع صمود فى هذا المشروع أنه ذو مستوى راق فى محاورته للجاحظ ولبلاغته، حتى أنه لم يقتصر على الأحكام العامة والانطباعات الذوقية، فالكلام والصمت من المباحث التي أسهم فيها أبو عثمان بشكل كبير، وهو بالأهمية بما كان، بحيث كان ذا استباقات تجلت فى الدراسات الحديثة.

2. المنهج والآليات فى كتاب التفكير البلاغى عند العرب:

يعتبر المنهج الذي وظّفه حمادي صمود لقراءة البلاغة والنقد العربيين، من أهم الأشياء الجديدة التى أتى بها فى كتابه **(التفكير البلاغى عند العرب)**، وباقى الأبحاث السابقة التى قامت بدورها فى قراءة التراث العربى بلاغةً ونقدا، نخص بالذكر قراءة شوقى ضيف فى كتابه (**البلاغة العربية تطور وتاريخ**)، وقراءتى عباس أرحيلة فى كتابه (**الأثر الأرسطى فى البلاغة والنقد العربيين حتى القرن الثامن الهجري**)، وقراءة مُحَمَّد الوالي في كتابه **(الاستعارة في محطات يونانية وغربية وعربية)**.

أصبح معروفاً تميز حمادي صمود عن معاصريه، في قراءته الجديدة للبلاغة العربية، فاستعان بمناهج غربية محضة، واستثمر في المكتسبات البنيوية واللسانيات، فكان مشروعه تركيبياً يعتمد النظرة الشمولية في قراءته للتراث، هذا دون

إغفال المنهج التاريخي الذي رصد به الظواهر البلاغية والنقدية والتفكير عند العرب، كالبيان والبديع والمجاز وغيرها من المباحث البلاغية.

يقول حمادي صمود: «إن المنهج في تصورنا لا يقتصر على طرائق العلماء في تأليف كتبهم وتنظيم فصول أبوابها، كما لا يتحدد بالصبغة الغالبة على دراستهم أدبية كانت أو كلامية وانما يتجاوزوها إلى تدقيق مسالكهم في الاهتداء إلى مواطن الجودة والقبح في الكلام واستكناه المستندات النظرية والمتطلبات المبدئية التي على أساسها واجهوا مسألة القيمة الفنية وأخرجوا كتبهم»[1].

ولأهمية المنهج في توجيه القارئ واستمالته يقول: «والمؤلف على بيّنة من غزارة المادة التي يعالجها وتشعبها، حاد الوعي بضرورة ترسم منهج محكم يمكّن من إخضاعها وسوقها إلى القارئ في أبواب واضحة الفواصل متينة الروابط، إلاّ أن الإنجاز الفعلي بقي دون الوعي المنهجي النظري فجاء تخطيط الكتاب صورة لهذا الصراع الذي حملناه على التقاء مفهومين للكتابة لديه: التدوين والتنظيم»[2]، وهذا منهجه في التأليف الذي أصبح مشروعاً بحق ينتفع به المتلقي والباحث في أفنان البلاغة.

وتبعا لهذا التصور حاول الباحث رجاء عيد أن يتابع رحلة صمود، والتي كانت في تقديره شاقة مشوقة، ومن ثم فقد وقف ابتداءً على منهج صمود في كتابهقائلا: «أنه لم يلتزم بمنهجه في القسم المخصص لدراسة الجاحظ وتعليل المؤلف لذلك الخروج في كلتا المرتين يبدو غير مقنع»[3]، ففي الخروج الأول يكون تعليله بأن الجاحظ وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي، وقد جره ذلك لبعض الاضطرابات المنهجية.

وفي ما يخص المقاربة المنهجية للكتاب، يقدم لنا حافظ الجمالي قراءة في مشروع حمادي صمود «وبمنطق النقد الواصف **Critique descriptive** يبيّن أن منهج صمود في مقاربته للبلاغة العربية طريف متميز»[4]، وهذا اعتراف منه بأن منهج حمادي صمود في الكتاب هو منهج دقيق توصل به إلى ما يريد الوصول إليه.

وفي كتابه **(التفكير البلاغي عند العرب)** نجده اختار **الحدث الجاحظي** في البلاغة العربية كمرجع له في تدوين معالم البلاغة، في إطار قراءة لسانية، «وصورة هذه القراءة أنّها ناقشت أفكار البلاغيين في جملة من المقولات اللسانية التي جاء بها العلم الحديث، ويبدو أن الرجل كسب هذه الثقافة اللسانية جيدا، وحاول أن يقدم قراءة جديدة لتاريخ البلاغة العربية من منطلق التفاعل مع النصوص اللغوية»[5].

نقف على نظرية متكاملة عند حمادي صمود ترى وتقدّر «أنّ الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعي فيه بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحض، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية**extra linguistique** من روابط»[6]، وهو سبقٌ للمؤلف حيث شحن البلاغة العربية بنظريات غربية ساعدته في اكتشاف مضمرات التراث العربي القديم.

لم يقتصر الجاحظعلى اللغة وحدها فقط كوسيلة للتواصل، بل عدّ العقد والإشارة، والخط، والنصبة، من وسائل التواصل أيضا، حتى وان اعترف تصريحاً بأن اللغة هي أهم تلك الوسائل وأوفاها، وفي خضم هذه المباحث لا ينبغي أن نحمّل المؤلف ما لا يحتمل، فالمعاني وان كان للباحثين فيها مقالات، بين من يرى بأهميتها، وبين العكس، مقارنة بالألفاظ بصفة عامة، وهذه هنةٌ لا يُعرف بها الجاحظ، فالألفاظ والمعاني كلها درزٌ من درر الجاحظ كما بيّنه صمود.

القراءة التي تتعامل مع التراث اللغوي العربي القديم كموجود لغوي قائم الذات، باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، واعادة قراءته، فقراءة صمود عرضت آراء لغوية جاحظية في محاولة منه لاستنطاق نصوصه، والوقوف على ما فيها من نظرات لسانية «لم تهتد إليها البشرية إلاّ مؤخراً بفضل ازدهار علم اللسان منذ القرن العشرين»[7]، فمقولات الجاحظ تحاكي حد التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث، الذي يراعي البعد الاجتماعي للغة.

وتحدث الجاحظ كذلك عن عيوب النطق التالية: **العقلة واللكنة والحكلة** مستأنساً بشواهد شعرية شتى، وأضاف عيوباً أخرى **كالنحنحة والسعلة والبكء والهياب والعي وعيّاب والضجم والفقموالروق**، وكل هذه العيوب البيانية تلتصق بشروط الخطبة، كما تحدث عن العيوب التي تصيب آلة النطق، كأهمية الثنايا وفساد الأسنان.

وقف الباحث حمادي صمود على نص الجاحظ التالي: «**وعلى قدر وضوح الدلالة والصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور، وكان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ويدعو إليه، ويحث عليه بذلك**

نطق القرآن وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم»[8]، فالإفصاح وجلاء الألفاظ هو من مباحث الجاحظ البلاغية التي اشتغلت عليها النظريات الغربية اليوم.

3. مركزية الجاحظ البلاغية:

إن الناظر بغير عصبية يدرك لا محالة أن لبّ البلاغة ومركزها هو الجاحظ، وهنا يبرر صمود اختياره لهذا الأخير بقوله: «ولم نخرج عن هذا الالتزام إلاّ في القسم المخصص للجاحظ لأنه، في اعتقادنا وضع الأسس الكبرى للتفكير البلاغي بحيث تبقى الفترات الموالية تستلهم مادته وتستحضر مقاييسه»[9]، فكل جهد بلاغي جاء بعد أبي عثمان يعتبر عالةً عليه، فالبيان والتبيين هو مؤلف يعتبر من أصول الأدب وفنه، كما يقول إبن خلدون فى المقدمة.

كما أن مؤلفاته -بفهم صمود- تعد أقدم آثار وصلتنا لها علاقة بأفانين التعبير، وهو كذلك أول مؤلف يخصص لدراسة الكلام البليغ، وضوابط المستوى الفني من اللغة، والمفهوم من هذا أنّ الباحث قد أدرك تقسيم المنظومة البلاغية العربية إلى عصور، أو إلى بيئات لغوية وكلامية، وفلسفية، وأدبية، ويكون صمود بهذا التقسيم قد فطن إلى أن الحدود الفاصلة بين هذه البيئات والعصور النقدية لم تكن حدوداً قاطعة، فهناك دائماً نقاط التداخل والتلاقي.

تركزت دراسة حمادى صمود لمركزية الجاحظ فى نقاط نجملها فيما يلى[10]:

أ- رأى المؤلف أن الجاحظ يمثل الحلقة الأولى لحركة ما يسمى بالنزعة الموسوعية في الفكر العربي، ويرى أنها عند الجاحظ مؤشر خلق حضارى، بينما كانت عنده غيره نذير تقهقر وانحطاط.

ب- يعرض المؤلف (**لمجموعة الرسائل**) وكتاب (**البخلاء**)، ومع اعترافه بأن المادة البلاغية قليلةفيهما وصعبة المنال، فهي متناثرة هنا وهناك حيث لم يفردها بمؤلف خاص.

ج- يعرض لمصطلح البيان ويتوصل إلى أنه يتحمل دلالات متعددة حسب السياقات.

3. قراءة عبد السلام المسدي لبلاغة الجاحظ:

من القراءات الحداثية التي حاولت الاستثمار في الأسلوب لقراءة التراث، نجد عبد السلام المسدي*[11] الذي اهتم بالأسلوبية العربية في بحثه المعنون بـ: (**مع الجاحظ البيان والتبيين بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب، أسس تقييم جديدة**)، كما كانت له مباحث رائدة في التنقيب عن التراث العربي القديم، حيث كانت له دراسات رصدت أهم القضايا المتصلة بالتراث، وقد استند على المنهج في قراءته لبلاغة الجاحظ خاصة في (**البيان والتبيين**)، وهذا ظاهر جلي، وواضح في دراسته الموسومة بـ (**قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون**)، فكتابه هذا يعتبر نقلة نوعية في بلورة أدب الجاحظ ومنهجه في التأليف.

وقد كانت له دراسة أخرى تعتبر دراسة غنية بما حملته، فاهتمت بالجانب المنهجي في البيان والتبيين والمعنونة بـ: (**البيان والتبيين بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب أسس تقييم جديد**)، وتعتبر هذه الدراسة مشروع نقد النقد كما يصرح هو بذلك.

أمّا عن سبب دراسته للجاحظ وفق المناهج المعاصرة -المنهج الأسلوبي- والجواب في نظرنا هو «إبراز ما في الفكر البلاغي الجاحظي من مظاهر الحداثة ومن قيم ومفاهيم يقدّر الباحث أنها غير بعيدة عن التصور الأسلوبي الحديث، بمعنى أن مطمح عبد السلام المسدي يتمثل في الرغبة في تجاوز نظرة الانبهار بالدرس النقدي الغربي وكذا في الحرص على إحياء التراث في ضوء معارفه وإفاداته في الدرس الأسلوبي»[12]، فغاية المسدي الرقي بالتراث عبر وصله بالمناهج الغربية، واستخراج ما فيه حداثيا، فقد انبرى له المسدي وكان جهده جهداً غنياً.

وقد تمثلت الأسلوبية في **البيان والتبيين** من خلال قضية **اختيار** اللفظ، وذلك أن الجاحظ في هذا الكتاب ركّز كثيراً على أن الخلق الفني إنّما هو عمل أو صناعة، كما أنّ العمل الأدبي –شعراً كان أو نثرا- يخضع لشرطين:

1- وعي صاحب النص بنصه.

2- طول مدة الدراسة والدربة والتنقيح، «وقال الحطيئة خير الشعر الحولي المحكّك»[13].

وكذلك تعيين مبدأ الاختيار الأسلوبي لدى الجاحظ هو يطابق البنية الداخلية للكلمة أن يحصل التطابق الدلالي بين البنية الألسنية الصوتية -والبنية الداخلية- أي الألسنية الدلالية- بحيث يكون اقتران الدال بمدلوله اقرانا آنيا لا يفضي إلى أي انزياح زمني أو قطيعة دلالية، ويطلق عليها الأسلوبيين اليوم على هذه الظاهرة بالانتظام النوعي في

صلب أجزاء الأثر، مما يطبعه بالائتلاف بين هياكل الدوال وهياكل المدلولات، وللجاحظ في ذلك تصور طريف يجسم مفهوما حركيا يتمثل في التسارع بين البنيتين: ‹لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك›، **فالاختيار والتأليف** اللذين سيتحدث عنهما المسدي فيما بعد في كتابات الجاحظ، ومفهوم الاختيار هنا لدى الجاحظ[14].

وعن سبب تأليف الجاحظ **للبيان والتبيين** يقول: «وللكتاب غاية لعلها هي التي حركت الجاحظ إلى تأليفه وتتمثل في الرد على الشعوبية رداً صريحاً وضمنياً في أغلب الأحيان فقصد بذلك إلى إبراز الطابع الذي انفردت به حضارة العرب فتميزوا به عن غيرهم من ذوي الحضارات الأخرى ولاسيما الفارسية منها، وما هذه السمة المميزة إلاّ البلاغة والفصاحة»[15]، هذا هو الدافع الحقيقي الذي جعل الجاحظ يؤلف هذا الكتاب بنزعة قومية قوية.

فقد اجتمع في (**البيان والتبيين**) رافدين أساسين أحدهما: «غربي وافد والآخر إسلامي وبين ذا وذاك تجد تعليقات الجاحظ واستطراداته، فالكتاب احتوى على نصوص دينية وأدبية وشعرية ونثرية فيحاول أن يصوغ لنفسه نظرية في البلاغة»[16]،وهذا الذي يقول به أيضا شوقي ضيف في (**البلاغة تطور وتاريخ**).

ينظّر المسدي (**البيان والتبيين**) فيرى أن الكتاب «بقدر ما حمل بين طياته صبغة قواعد البلاغة وان كانت قليلة ويسيرة، بينما ما نجده من أدب وفير قد ساعد على بلورة مفهوم هذا الأخير حتى «كان حظ البيان والتبيين في إرساء قواعد علم البلاغة غير قليل فإن حظه الأوفر إنّما استقاه من كونه كتاب أدب ولا يكاد أحد من القدماء أو المحدثين – نصيرا لأبي عثمان أو خصيما عليه- يشك في شرعية هذه المنزلة الجاحظية في بلورة مفهوم –الأدب- عند العرب حتى أصبحت شهادة ابن خلدون في ذلك رمزا لحقيقة عرفية قارة»[17]، إذا فـ**البيان والتبيين** حدّد مفهوم الأدب بمنهجه كما يقول المسدي، حتى أضحى نموذجا يحتذى به في الاستطراد والتحرر من قبضة وسلطة المواضيع.

وبنظرة أولية في (**البيان والتبيين**) يرى المسدي أنّ الجاحظ يمتلك منهج محكم وصارم «فهو فضلا عن تقسيم كتابه إلى أجزاء مقصودة الفواصل، ثم إلى أبواب صريحة الحدود، يضع لجل الفصول عناوينفيها من التجريد والشمول ما يجعلها محركا دلاليا لكل المادة في الحامل للعنوان كما في باب البيان (1-75)وكما في باب القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز (1-210)»[18]، وبعد سرده لبعض المسائل التي أوردها الجاحظ حول تبويب الكتاب تقديما وتأخيرا، توصل لهذه النتائج التي مر الكلام عليها.

ونجده كذلك يصرح بأن الوعي المنهجي واضح وبشكل كبير «ويطفو هذا الوعي المنهجي على سطح التأليف فيتجاوز مادة الكتاب الواحد مما كان الجاحظ بصدد تأليفه ليصبح وعي المقارنة بمادة بعض كتبه الأخرى»[19]، وهذا يعطينا فكرة واضحة على أن الجاحظ بنى كتابه على منهج عقلاني وهو الذي يذهب إليه المسدي، فالجاحظ يشرك القارئ في سهولة الاقتناع.

كما كانت له مناقشة في آليات الإجراء ومنطلقها المعرفي في فك شيفرة التأليف لدى الجاحظ من ناحية منهج التأليف، والظواهر الأدبية التي جاءت في البيان والتبيين كالاستطرادات، والمراوحة بين الجد والهزل والتكرار، هذه المناقشة تسمح لنا بالكشف عن الظاهرة الكتابية لدى الجاحظ وحدود وعيه المنهجي، هذا من جهة وتقديم قراءة استباقية في مشروع نقد النقد من جهة أخرى.

استهل المسدي كلامه بوقوفه على أهل الكلام، حيث يقول: «إذ يبدو أن المتكلمين – والجاحظ أحد أعلامهم – قد كانوا أشد الناس عناية بخصائص الكلام البليغ لاعتمادهم على صياغة اللفظ وأفانين تصريفه في مناظراتهم ومساجلاتهم»[20]، فانتماء الجاحظ للمعتزلة وللكلاميين بصفة خاصة جعله يسعى للتأليف بحسب البيئة التي أثرت فيه كما سبق وأن ذكرنا تأثير البيئة على أدب الجاحظ في مبحث المستشرق شارل بلاّ.

ويرى المسدي أن الجاحظ دقيق في اختيار العناوين وتناسقها وتشابكها، هذا ينمّ على وعي منهجي كبير، لا يخفى على المتلقي، ولهذا نجد المسدي يتحدث كثيرا عن قضية الوعي المنهجي لدى الجاحظ، واهتم بالأسلوب أيما اهتمام، فقد سبق وقلنا أن المسدي يرى بوعي الجاحظ الكبير -منهجيا- واستطرادات أبي عثمان كانت بعلم منه وبغرض دفين عنده، ودليله قوله: «وانما هو واع بدوافع هذا التصنيف مما يبرز صريحا في بعض المواطن... ويطفو هذا الوعي المنهجي على سطح التأليف فيتجاوز مادة الكتاب الواحد مما كان الجاحظ بصدد تأليفه ليصبح وعي المقارنة بمادة بعض كتبه الأخرى»[21]، هذا التقديم والتأخير من طرف المؤلف –الجاحظ- هو صادر عن وعي منهجي وبتدبير مقصود.

ومع هذا يستدرك إلى ما ذهب إليه حول الدقّة المنهجية عند الجاحظ، مع وجود تداخل وتبعثر في مواضيع مؤلفاته بحيث يقول: «ومن مظاهر حدود الوعي المنهجي ما نلاحظه من تباعد ما حقه التعاقب المباشر، ومما يتسنى الاستدلال به على ذلك من إيراد الجاحظ رأيا للعتابي في البلاغة في (الصفحة 113) من الجزء الأول ثم لا يعلق عليه إلاّ في (الصفحة 121)، كل هذا يعود إلى استعصاء منهجية التأليف على الجاحظ وهو لا يستنكف من الإقرار -في بعض المواطن- بقصوره عن إدراك حدّ من التجريد يبوء التأليف المنهج العقلاني الذي يرتضيه نظريا»[22]، وبعد إيراده للمواطن التي كان للجاحظ فيها تخبط واستعصاء منهجي، تجعله بين طرحين متناقضين وقع فيهما الجاحظ كما يرى المسدي الأول تمثل في الدقة المنهجية، والثاني تخبط منهجي لم يكن له رأي فاصل فيهما.

هذا ما جعله يطرح بعض الأسئلة التي يمكن أن تساعده في قراءة **البيان والتبيين** فقال: أي شيء تعزى هذه الظاهرة في كتاب (**البيان والتبيين**)أولاً، وفي مؤلفاته الأخرى ثانياً ؟ وما سبب هذا التذبذب بين المنهجية المستحكمة في التأليف، وبين المسلك الاستطرادي في مؤلفاته ؟ أليس هذا منهجاً في حد ذاته كما يرى مصطفى ناصف ؟

حتى ولو تبنى الجاحظ هذا الطرح أي حرية الكتابة، والغوص في الاستطراد، وإن استطرد – فيما استطرد – إلى الحديث عن منهجه فإنه في مقام من غلبت عليه الظاهرة وأوعزته الحيلة فيها، فانبرى يوهم بأنها مقصودة لذاتها[23]، كل هذه الأسئلة تبحث عن أجوبة قد تحيلنا إلى قراءة المسدي لبلاغة أبي عثمان.

ومن خلال هذه البحث، ومع تعدد القرّاء الذين مرت بهم حيثيات هذا البحث في طريقي، لم أجد دارساً تعمّق في نصوص الجاحظ مثل المسدي، فقد حاول أن يصل بطريقة أو أخرى إلى كيفية كتابة الجاحظ للبيان، سواء من ناحية الكتابة أو من ناحية الفكر، ونجده يستدرك ويقول: «ولكنّنا متى تقفينا نسيج نظامه الفكري، وعقدنا الوصل بين أطراف حيرته المنهجية في أبعاد عمقها وحدود غوصه عليها»[24]، فقد تتبع المسدي منهجية الجاحظ في مؤلفاته، وتوصل في الأخير إلى أن يصف منهجية مؤلفات الجاحظ بـ (الحيرة المنهجية للجاحظ).

ويعترف بأن هذه المنهجية أعمق مما يتصور، بحيث يرى اختفاء المنهج المقصود ويحل محله منهج ليس بمنهج وهو منهج مزعوم كما يصوره الجاحظ بكل هدوء وينقلك من أمر إلى أمر دون أن تشعر، ووصولا إلى التبرير الذي جعله ينتهج هذا النهج بل ويعتذر عن هذا كما في (**الحيوان**)، وفي حديثه عن المصطلحات البلاغية الواردة في (**البيان والتبيين**) وهي التي ستتبلور مع تبلور علم البلاغة عموما.

ومن تلقائية استعمال الجاحظ لهذه المصطلحات يحاول المسدي رصد دقائقها الفنية، وهذه المجموعة من المصطلحات تستقطب لفظة **بلاغة** وتلحق بها عبارة **إبلاغ**، ثم لفظة **فصاحة** وتلحق بها عبارة **إفصاح**، كما يرى أن استعمال مصطلح ‹**البلاغة**›استعملت في كتاب (**البيان والتبيين**) 16مرة، وتفرعت إلى معان أربعة عن طريق ‹عطف التمييز›فيكون المجموع 64 مرة.

ويستخلص كذلك أنّ «مصطلح (البلاغة)محور منطقي لساني تكون فيه العبارة محمّلة شحنة عقلانية تمخض بها معنى الإقناع عامة بواسطة الأداء اللغوي... ثم من استعمالات عبارات البلاغة ما يقترن بمجال استعمال الظاهرة اللغوية استعمالا شفويا تأثيريا يصطبغ بخصائص فنية»[25]، من هنا يرى المسدي أن العقلانية كانت مؤثرة إلى حد بعيد.

ومن جانب آخر يرى المسدي أن لدلالة البلاغة في (**البيان والتبيين**) محوراً آخر هو محور تطبيقي، يدور عموماً حول تضمن الكلام لخصائص تمييزية يتحول بها من مجرد إبلاغ رسالة لسانية إلى مادة من الخلق الفني أي الصناعة،كما يقول الجاحظ وهو استعمال يتلاءم وما اختصت به العبارة عندما أرسيت قواعد البلاغة.

أما تواتر عبارة بلاغة حسب هذه المحاور المختلفة فيتحدد كما يلي عند المسدي:

- مصطلح الإبلاغ: استعمل هذا المصدر في كتاب (**البيان والتبيين**) أربع مرات.
- مصطلح الفصاحة: وردت هذه العبارة خمسة عشر مرة.
- مصطلح الإفصاح: تواترت تسع مرات في معاني متقاربة الحدود يمكن إدراجها في ثلاثة محاور رئيسية مع تجاوز بعض الدقائق الجزئية.

– معجمي صرف يفيد مجرد عملية النطق أي أن المصدر ‹إفصاح› يتطابق عندئذ مع المعنى الأول لكل من ‹بلاغة وإبلاغ وإفصاح›‹مرتان: 22.2 بالمائة›.

– والمعنى الثاني هو المعنى الأسلوبي المميز للتعبير ويطابق المعنى الخامس للبلاغة والثاني للإبلاغ والخامس للفصاحة ‹مرتان: 22.2 بالمائة›.

– أما المعنىالثالث فهو معنى تستقل به عبارة الإفصاح وهو فنّي دقيق يفيد التعويل على الطاقات الدلالية في اللغة أكثر من دون التعويل على طاقاتها الإيحائية فتكون العبارة في هذا السياق مقابلة لمفهوم الإضمار أو الكناية أو التضمين[26].

هذه معانٍ مختلفة، كان للمسدي تفصيل فيها من الجانب الإحصائي لعبارة ‹بلاغة› التي وردت في البيان والتبيين وهي قليلة نوعاً ما، مثل مصطلح الإبلاغ ورد أربع مرات.

ثم تكلم المسدي عن قضية الألفاظ عند الجاحظ، ومحاولة إيجاد تبريرات له فيما يخص قضية المقاييس العامة للألفاظ، وكيفية انتقاءها، «فإذا كان الجاحظ قد حاول تقنين سلم المقاييس العامة في اختيار اللفظ، وفي اختيار النظم»[27].

ويتساءل المسدي عن رأي الجاحظ في الطاقات الظاهرة اللغوية من حيث الإبلاغ بحيث يقول: «ولئن اشتمل (**البيان والتبيين**)على إشارات عديدة تبرز الطاقة الدلالية المباشرة في اللغة»[28]، كما يعترف بأنها متطابقة مع الإفصاح، أما فيما يخص طريقة الجاحظ في شرح الخصائص الأسلوبية المميزة فيرى المسدي أنها تعود لكيفية الانتقاء لدى الجاحظ.

وفي نفس السياق يلخص المسدي طريقة الجاحظ في الاشارة إلى سمات الخطاب الايحائي بتوزيعها على مستويين:

المستوى الأول: وصفي تحليلي يتفرع إلى ثلاث مجموعات من المقاييس:

أولا: كمية، كقوله:

– حسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره.

– ورب قليل يغني عن الكثير ...بل رب كلمة تغني عن خطبة ... بل ربّ كناية تربي على إفصاح.

– الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف.

– قلة عدد الحروف مع كثرة المعاني.

ثانيا: نوعية، كقوله:

– فذكر المحذوف في موضعه والموجز والكناية والوحي باللفظ ودلالة الإشارة إلى المعنى.

ثالثا: تقييمية، كقوله:

– ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها.

– قال من هذه التي ترد إلى قليل فتقنع وليس المضمن كالمطلق.

– وإنّ قصر القول أتى على غاية كل خطيب.

والمستوى الثاني هو مستوى التجريد ومطابقة الصيغة الاصطلاحية للظواهر الأسلوبية ونموذجه لدى الجاحظ مفهوم الكناية في مقابل مفهوم الافصاح ثم التدرج إلى مفهوم الاقتضاب والايجاز[29].

4. مقارنة بين عبد السلام المسدي وحمادي صمود:

وعلى الجملة، ما نستخلصه من استقراء كل من المسدي عبد السلام وحمادي صمود جاء على النحو التالي:

– اتفاقهما على تنوع المضامين المستخلصة من مصطلحات البلاغة والبيان والفصاحة.

– نجد المسدي يؤكد وعي الجاحظ بثنائية توظيف الظاهرة اللغوية.

– يؤكد المسدي على دلالة أسلوبية غايتها الخلق الفني كما تظهرها خصائص النص البنائية(30)، عند الجاحظ في البيان والتبيين.

– يعترفالمسدي بأن المنهجية أعمق مما يتصور، بحيث يرى اختفاء المنهج المقصود ويحل محله منهج ليس بمنهج وهو منهج مزعوم كما يصوره الجاحظ بكل هدوء وينقلك من أمر إلى أمر دون أن تشعر، ووصولا إلى التبرير الذي جعله ينتهج هذا النهج.

– أكثر المسدي من الإحصاء والترقيم في بحثه وهو ما تتطلبه مبادئ الأسلوبية.

– الفرق الكبير بين الرجلين هو أن حمادي صمود ركز على الإجراء بينما المسدي ركز على المنهج.

– قراءة مشروع الرجلين يعتبر لبنة من لبنات السمو ببلاغة الجاحظ.

5. خاتمة:

في ختام هذا البحث نستطيع القول أن حمادي صمود وعبد السلام المسدي استطاعا أن يخلصا ذلك الجمود الذي أصاب النصوص التراثية خاصة ما تعلق منها بالجاحظ ردحا من الزمن، حيث نجحا في نفض الغبار عن بلاغة الجاحظ، وتصويبها وتحقيقها تحقيقا ينسجم مه روح العصر، وبالاشتغال آليات المناهج الغربية ومقتضياتها، فقد حاول حمادي صمود في بلورة اللسانيات والبنيوية في النحت على بلاغة عثمان وكان له أن نجح في تقسيم البلاغة العربية إلى ثلاث روافد كبرى تحت جسر كبير (الجاحظ)، بحيث استثمر في مركزية الجاحظ فوضعه في لب هذه القسمة، (البلاغة قبل الجاحظ- البلاغة زمن الجاحظ- البلاغة بعد الجاحظ)، وهذا ما ساعده كثيرا في تحقيق المأمول والمتاح.

كما توصلنا إلى أن عبد السلام المسدي كان أكثر حضورا في مدونة الجاحظ ذلك بأنه ركز على آليات الأسلوبية لامتطاء بلاغة أبي عثمان، فكان له ما أراد، وقد فصّل كثيرا في إبراز قيمة التراث الجاحظي، وقد نجح فعلا في الرقي بهذه البلاغة التي استعصت على الكثير.

6. قائمة الإحالات:

1- المرجع نفسه، ص: 480.

2 - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 12.

3 - رجاء عيد، مقال: مجلة فصول، ص: 234.

4 - ينظر: حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب، نقلا عن: مُحَمَّد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط:1، 2019، ص:240.

5- عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة وهران، 2015-2016، ص:20.

6- ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 185.

7- عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، (ب ط)، ص:31.

8- المرجع نفسه، ج:1، ص:90.

9- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص:12.

10- رجاء عيد، مقال: التفكير البلاغي عند العرب حتى القرن السادس مشروع قراءة، عرض ومناقشة، ص:235.

11- عبد السلام المسدّي، مواليد 26 يناير1945، صفاقس (أكاديمي وكاتب ودبلوماسي ووزير التعليم العالي في تونس، من أهم الباحثين في مجال اللسانيات، يُعدُّ واحدا من النقاد القلائل الذين رسخت أسماؤهم في حركة النقد الأدبي ليس في تونس فقط بل في العالم العربي، فعلى مدار مسيرته الطويلة قدم عطاءً وافراً أسهم في ثراء الحركة النقدية العربية، وهو بالإضافة إلى هذا له إسهامات في العمل السياسي والدبلوماسي والأكاديمي، حيث يعمل أستاذ اللسانيات في الجامعة التونسية، كما تولى عدة مناصب سياسية من بينها توليه حقيبة التعليم في تونس.

12- مُحَمَّد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 274-275.
13- الجاحظ، البيان والتبيين، 13/2.
14- المرجع نفسه، ص:276، بتصرف
15- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح الكويت، ط: 4، 1983، ص:101.
16- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 101.
17- المرجع نفسه، ص: 102.
18- المرجع نفسه، ص: 103.
19- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 104.
20- المرجع نفسه، ص:101.
21- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 104.
22- المرجع نفسه، ص: 109- 110.
23- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، بتصرف، ص:111.
24- المرجع نفسه ، ص:112.
25- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص: 123.
26- المرجع نفسه، ص: 125-127.
27- عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص:140.
28- المرجع نفسه، ص:140.
29- ينظر: مُحَمَّد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة، ص: 282-283.
30- المرجع نفسه، ص: 284.

*- مصطفى عبده ناصف أديب وناقد مصري، حصل على ليسانس وماجستير الآداب في اللغة العربية من كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، كما حصل على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة عين شمس سنة1371 هـ الموافقة لسنة1952 م، عمل كأكاديمي في جامعة عين شمس إلى أن أصبح أستاذ كرسي سنة 1385 هـ الموافق لسنة1966 م .ساهم في نشر العديد من الكتب والمقالات في المجلات الأدبية والثقافية والمؤتمرات العلمية، حصل على جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والأدب سنة1428 هـ الموافقة لسنة2007 م بالاشتراك مع مُحَمَّد العمري، كما مُنح نوط الامتياز من الطبقة الأولى، وجائزة الدولة التقديرية في الآداب من مصر، وجائزة أفضل كتاب في النقد الأدبي من وزارة الثقافة المصرية، وجائزة نقد الشعر من مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين في الكويت، وجائزة الدراسات الأدبية والنقد من مؤسسة سلطان بن علي العويس في الإمارات العربية المتحدة.

7. قائمة المصادر والمراجع:

1. عبد الواحد مرابط وآخرون، من البلاغة المختزلة إلى البلاغة الرحبة قراءات في أعمال الدكتور مُحَمَّد مشبال، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
2. مُحَمَّد سالم مُحَمَّد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط: 1، 2008.
3. مُحَمَّد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط:1، 2019.
4. عثماني عمار، ملامح تجديد البلاغة العربية في كتاب البلاغة العربية قراءة أخرى لمحمد عبد المطلب، دراسة تحليلية نقدية، رسالة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة وهران، 2015-2016.
5. مُحَمَّد العمري، المحاضرة والمناظرة في التأسيس البلاغة العامة، مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق، 2017.
6. عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع، تونس، (ب ط).
7. عبد السلام المسدي، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، دار سعاد الصباح الكويت، ط: 4، 1983.